دراسة النفاق حسب فلسفة الألوان

الأنفس العظيمة تميل مع الحق أينما مال، أما الأنفس الوضيعة فتميل مع مصالحها، حتى إذا كان ذلك الميل ضد قناعاتها... من هنا يمكن فهم نفسيات المنافقين، وبمعنى آخر فإن مواقف المجاهرين بعدائهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت رغم ما فيها من الصد عن الحق وعن سبيل الله أفضل من مواقف المنافقين..

إن خالد بن الوليد مثلاً، أو أبا سفيان، أو غيرهما، كانت مواقفهم من الإسلام واضحة، وهي محاربته، وكان ذلك تعبيرا عن وضوح موقف... أما بالنسبة للمنافقين فإن الحديث عن الوضوح، أو عن الموقف ذاته، أمر غير ممكن، فهم متذبذبون، لا هم إلى هؤلاء ولا هم إلى هؤلاء، وهذه الصورة الضبابية هي التي تجعل من الصعب تحديد الجهة التي هم منها وفيها.

والصور الضبابية والسرابية خداعة، لذلك فقد كاد الصف الإسلامي في حوادث عدة يتعرض لهزات داخلية مربكة يسببها المنافقون.

وفي مكة لم يظهر النفاق، بل بعكس ذلك، كان هناك أفراد متخفون بإسلامهم في صفوف المشركين، ولربما كان بعضهم يظهر خلاف ما يبطن من الإسلام اتقاء لتنكيل الكفار به... وقد كان ذلك الواقع يعني تصدع الصف المشرك وهشاشته، ولم يكن عند المسلمين آنذاك ما يرغب فيه الناس، أو يرهبونه، اللهم إلا عقيدتهم ودينهم، لذلك لم يظهر النفاق في الفترة المكية.

أما في الفترة المدنية فقد كان عند المسلمين من أسباب الدنيا والظهور ما يغري طلاب الدنيا وممن يميلون مع مصالحهم لا مع قناعاتهم، لذلك ظهر النفاق، وكان معنى ذلك دخول مرحلة جديدة تبلور فيها عدو جديد للصف الإسلامي.

كيف؟!!

لا شك أن عدو المسلمين قبل الهجرة كان عدواً خارجياً من غير صفهم، وكان تميزه يسهّل مهمة مواجهته، أما في المدينة فقد أفرزت الأوضاع الجديدة للتمكين عدواً آخر هو العدو الداخلي المندس في الصف الإسلامي، وتكمن خطورة هذا العدو في عدم تميزه، لذلك كان النخر والتآكل الداخلي..

ولئن كان العدو الخارجي كما أسلفنا في غير هذا الفصل، قد كان سبباً في توحد الأوس والخزرج لإحساسهم بالخطر الخارجي الواحد، فإن العدو الداخلي والذي لا يمكن الإحساس بخطره ولا التنبه له، كان يعمل بعكس ذلك على فك عرى وروابط الوحدة الإسلامية، لذلك كثيراً ما ذهب يحرك الثارات والجراح القديمة وينفخ في جمرها.

ولئن كانت القوة كما أسلفنا في درس حنين، هي إحساس كل فرد بأنه مسؤول عيناً، وأنه لا يجب أن يتواكل، أو يترك مكانه فقط لأن هناك غيره من سيرفع الثقل، أو يملأ حوض العسل، وقلنا أن هذه الحال تورث الارتخاء الذي لا يعطي معه الصف سوى جزء من قوته وقدرته، وذلك سبب الهزيمة في حنين، فإن اندساس المنافقين كان هو هذا الضعف ذاته، ذلك لأنهم عدداً كانوا محسوبين على المسلمين، أما فعْلاً فكانوا غير محسوبين، لذلك كان المسلمون يدخلونهم في حساباتهم، وهو ما يعني خطأ هذه الحسابات، وخطأ نتائجها.

فمثلاً لو كانت هناك مجموعة من الكفار عددها خمسة أفراد، تحتاج إلى مطاردة من طرف خمسة من المسلمين، فإذا اختير لهذه المهمة من الصف الإسلامي ثلاثة منافقين ومسلمَيْن اثنين، فإن المعادلة الحربية تكون فاسدة، لأنها ستكون واقعاً: «اثنان مقابل خمسة» وهذا قد يعني فشل المطاردة، والمشكلة تكمن في أن الاثنين المسلمين، لا يقومان بكل المهمة، بل ينخدعان بكون المنافقين الذين يظنونهم مسلمين سيقومون بـ ٦٠٪ منها، وهو ما يعني التواكل على غير موجود فعلي، وهو ما يضعّف أداء الصف الإسلامي، لذلك جاء النكير شديداً على المنافقين، واعتبرهم القرآن أشد ضرراً من العدو الخارجي (المشركين)، وقال تعالى: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار».

إن الاختلاف على الشيء الواحد بمفهومين مختلفين تنبني عليهما أمور خطيرة يعد مشكلة كبيرة في التصور.

فهل المنافقون كفار أم مسلمون؟!!

إن هذه الإشكالية هي التي ردمت الفجوة والفارق الواضح بين الصف الإسلامي والصف المشرك. لقد كان الكفار متميزين عن المسلمين، وبظهور المنافقين ملئت الفجوة الفارقة بين الصفين، وتداخل الصفان كما يتداخل لونان من طرفيهما في بعضهما، ووُجِد لون ثالث من جراء تداخلهما، لون ثالث فيه من هذا اللون وهذا اللون، وصار من الصعب ملاحظة التدرج بدقة، أو قطع الألوان عن بعضها بناء على تباينها.

إن تدرج الألوان نحو بعضها يعد ضعفاً فيها، فالأخضر الذي يتدرج في طرفه نحو الأصفر بلون برتقالي، يعد هذا اللون البرتقالي هشاً وضعيفاً فيه، لأنه لون مائل ليس إلى الأصل الأخضر فقط، بل وإلى

الأصفر (الآخر) أيضاً، وهو ما يعني الانتماء والولاء للآخر أيضاً ولو نسبياً.

وقد تعرض اللون الأسود الممثل لصف المشركين في المرحلة المكية لغزو الرمادي، والرمادي اهتزاز للأسود نحو الأبيض الذي يمثل الصف المسلم.

وكان ذلك الرمادي في اللون الأسود متمثلاً في الذين بدأت تتسرب إليهم أنوار الحق، وفي الذين يتسترون بإسلامهم خوف الافتتان. إن هذا الواقع كان علامة من علامات ضعف وتصدع الصف المشرك الأسود، وقد يظهر هذا الواقع جلياً في غزوة بدر، فقد روى ابن اسحاق عن ابن عياش، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال لأصحابه: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً».

إن تغير لون العباس إلى لون رمادي معناه الاقتراب من لون الصف الإسلامي، وهذه النسبية اللونية تجعل المسلمين يعاملونه بغير ما يعاملون به اللون الأسود الفاحم.

حقيقة لقد خرج العباس مقاتلاً في الصف المشرك، لكن اللون ليس هو اللون، إن العباس هذا هو من وقف قبل ذلك، ليلة العقبة، ليكون أول المتكلمين وليهوّل للأنصار قبل مبايعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم:

«يا معشر الخزرج.. وكان العرب يسمون الأنصار خزرجا ـ خزرجها وأوسها كليهما ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا

ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموهُ وخاذِلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن دعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده»[٣٧].

إن نصرة العباس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمايته له، لا يمكن أن توضع في ذات الخانة اللونية لأبي لهب مثلاً، لذلك فقد قام الإسلام بهز اللون الأسود من داخله هزاً، فشككه أولاً في سواده، فخفت درجة حميته وتعصبه لهذا السواد، ثم بدأت بذلك هجرته نحو الأبيض عبر تدرجات لونية معروفة.

إن المؤلفة قلوبهم والشاكّين والمترددين من المشركين كلهم كانوا يمثلون اللون الرمادي والذي هو الضعف الداخلي للأسود، لذلك نستطيع أن نقول أن المرحلة المكية كانت مرحلة اختراق الأبيض لحدود الأسود ودخوله فيه تدريجياً.

أما في المرحلة المدنية فقد كان العكس هو الذي يحدث، فقد عاد الأسود ليخترق حدود الأبيض وليداخله، ظهر ذلك في ظهور النفاق، ثم في الردّة بعد ذلك، لذلك قلنا ونقول أن مرحلة التمكين كانت بكل المعطيات مرحلة بداية الضعف، وتغيّر اللون، وظهور الاستقرار، وبداية الاهتمام بالمادة.. وهكذا.

وفلسفة اللون هذه تتجسد حتى عبر أمور بسيطة، فقد شبهت الأحاديثُ المسلمَ بالشامة البيضاء يؤثر فيها الدرن مهما كان بسيطاً،

٣٧ ـ الرحيق المختوم للمباركفوري ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

كما أن اللون الأبيض كان المحبب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لون حياة وموت، فقد كان يحبذ لبسه للجمعة، كما كان يكفن فيه الموتى، لأنه كان شعاراً لنقاء وصفاء العقيدة والدين.

أما في القرون المتأخرة فقد تأخر تبني الأبيض دنيوياً أمام الألوان الأخرى حتى عند المسلمين، وبقي فقط لون موت «الكفن» تماماً كما أصبح القرآن للأموات، رغم أن الله أنزله ليُقرأ للأحياء «لتنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين»

إن كشف الله تعالى لقائمة أسماء المنافقين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان معناه الاطلاع على أسرار وحدود التداخلات اللونية، التي غيبت حدود الأبيض في طرفه المقابل للأسود، وضيعت معالمه.

ولئن كان الله تعالى قد أنزل عنصرين للقوة هما:

القرآن والسلطان، أو القرآن والحديد، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «احكم بينهم بما أنزل الله» وكان الذي أنزله الله هو القرآن، كما أنزل أيضاً الحديد: «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد». وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم بهذا وهذا، ويقول: «إن الله ليزع بالقرآن ما لا يزع بالسلطان». وقد يصلح مع أقوام الحديد.. فقد ظهر عدو آخر لا يستجيب للقرآن، وليس واضحاً ليستعمل ضده الحديد.

إن الصفين المتباعدين وهما صفّ المسلمين والمشركين كان لكل منهما انزجار بأحد عنصري القوة، فالمسلمون لهم القرآن والمشركون لهم القرآن، فإن أبوا فالحديد، وقد استمر ذلك في الحروب الإسلامية فيما بعد (الإسلام ـ الجزية ـ الحرب).

أما الصف المنافق فشيء آخر، فبماذا يمكن أن يزجر، وأي قوة يمكن أن يواجه بها؟!!

كانت تلك صعوبة كبرى يواجهها الإسلام، فلئن قتلوا، قيل محمد يقتل أصحابه، كما ورد في السيرة، وإن نصحوا بالقرآن لم ينتصحوا، وهكذا.

كان ورماً مزمناً، لا يهدأ ولا يُجتث، فهل يمكن لصفّ أن يحسد على واقع كهذا؟!!

إن واقع الاختراق هذا من أصعب ما يتعرض له الصف الإسلامي، وهو علامة واضحة على نقل مجال الحرب من مجال العدو إلى مجال المسلمين.

إن بعض الجماعات الإسلامية قد يحلو لها في مرحلة ما أن تتحدث عن المنافقين في صفوفها، كونها قد تقوت وصارت هاجساً للأعداء، وتقيس الأمور على السيرة النبوية، لذلك فهي تستبعد في حال الضعف أن يكون فيها منافقون، والحقيقة أن قياس الدعوة على الفكرة أمر خاطئ، لذلك فنتائجه خاطئة. والجماعات الإسلامية، كما أثبت الواقع قد تخترق حتى وهي في حالات التضييق والفتنة والابتلاء.

ولئن كانت الاختراقات قديماً، اختراقات قائمة على التواجد في صف بلون آخر لتحقيق مصلحة، فإن هذه الدوافع موجودة اليوم أيضاً.

والفرق بين واقع اليوم، وواقع بداية الدعوة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ أن الاختراق في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ حدث طبيعياً، دون أن يكون هناك تخطيط له، فقد كان الفرد المسلم يختار من ذاته أن يتستر على إسلامه بين ظهراني المشركين،

كما كان الكافر يختار لمصالحه الشخصية ـ وليس تطبيقاً لتكليف رسمي من جهة ما ـ أنْ يكون في الصف المسلم منافقاً، وكان هذا الاختراق حاملاً للبذور العقدية... ولم ينتبه الكفار في المرحلة المكية ليدسوا على المسلمين بطريقة منظمة وواسعة من ليس منهم. أما اليوم فشيء آخر، وقد عملت أجهزة الاستخبارات حتى الغربية، كالموساد والأمريكية والروسية، على اختراق الكثير من الجماعات الإسلامية وفجّرتها، وهو ما يعني أن مسمى النفاق الذي يعني الاختراق قد انتقل اليوم إلى صورة أخرى أشد تنظيماً وأكثر دقة، تقوم وراءه وكالات وأجهزة رهيبة. فلئن كان الصف الإسلامي الأول قد عانى من اندساس مَصلَحي غير واع، فكيف بالمسلمين اليوم وهم يواجهون أعتى قوى الشر في العالم؟!!